



دشنـت روسـيا مرـحلة جـديدة من الأـزمـة السـورـية بـقـصـفـها لأـهـافـ تـابـعـة لـلـمعـارـضـة السـورـية، وـمـع هـذـا القـصـفـ يـثـورـ جـدلـ كـبـيرـ حول تـأـثـيرـاتـ هـذـهـ المـرـحـلـةـ عـلـىـ المـيـزـانـ الـاسـتـراتـيـجيـ لـلـقـوـيـ العـالـمـيـ فـيـ الإـقـلـيمـ، وـعـنـ مـوـقـعـ روـسـياـ الجـديـدـةـ فـيـ هـذـاـ المـيـزـانـ.

فـكـيفـ يـمـكـنـ قـرـاءـةـ التـدـخـلـ روـسـيـ العـسـكـريـ المـباـشـرـ فـيـ سـورـياـ؟ـ وـهـلـ هوـ اـنـتـصـارـ لـمـوـسـكـوـ وـدـلـيلـ عـلـىـ هـزـيمـةـ أـوـبـاماـ وـاسـتـراتـيـجـيـتـهـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ كـمـاـ يـروـجـ الـكـثـيـرـونـ؟ـ وـمـاـ دـلـالـاتـ ذـلـكـ عـلـىـ مـسـتـقـبـلـ الـمـنـطـقـةـ؟ـ

مواقف متباعدة:

تـبـاـيـنـتـ المـوـاقـفـ تـجـاهـ التـدـخـلـ روـسـيـ العـسـكـريـ فـيـ سـورـياـ تـبـعـاـ لـلـمـوقـفـ منـ الأـزمـةـ السـورـيةـ بـعـمـومـهـاـ،ـ فـمـنـ يـؤـيدـ الثـورـةـ رـأـيـ فـيـهـ اـسـتـمـراـرـاـ لـلـدـعـمـ القـوـيـ الـذـيـ يـحـصـلـ عـلـىـ النـظـامـ مـنـ حـلـفـائـهـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ الثـوـارـ وـعـلـىـ آـمـالـ الشـعـبـ السـورـيـ بـالـتـحرـرـ وـالـكـرـامـةـ،ـ مـقـابـلـ "ـخـذـلـانـ"ـ هـذـاـ الشـعـبـ وـثـورـتـهـ مـنـ قـبـلـ حـلـفـائـهـ أـوـ مـمـنـ أـطـلقـواـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ وـصـفـ "ـأـصـدـقـاءـ سـورـياـ"ـ،ـ وـقـدـ أـعـلـنـ هـذـاـ الفـرـيقـ الـمـؤـيـدـ لـلـثـورـةـ إـدـانـتـهـ وـرـفـضـهـ لـلـتـدـخـلـ روـسـيـ العـسـكـريـ بـوـضـوحـ.

وـفـيـ مـقـابـلـ هـذـهـ إـلـدانـةـ وـرـفـضـ،ـ كـانـ مـوقـفـ حـلـفـاءـ وـمـؤـيـدـيـ نـظـامـ الأـسـدـ وـمـحـورـ إـيـرانـ وـاضـحاـ لـجـهـةـ التـرحـيبـ بـالـتـدـخـلـ روـسـيـ،ـ نـظـراـ لـأـنـهـ سـيـسـاـهـمـ بـكـلـ تـأـكـيدـ بـتـعـزـيزـ المـوـقـفـ العـسـكـريـ وـالـمـيـدـانـيـ لـلـنـظـامـ.ـ وـرـأـيـ هـذـاـ الفـرـيقـ أـيـضاـ فـيـ تـدـخـلـ مـوـسـكـوـ الـأـخـيـرـ عـودـةـ مـظـفـرـةـ "ـلـدـبـ روـسـيـ"ـ،ـ الـذـيـ "ـسـيـنـهـيـ تـفـرـدـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ"ـ،ـ مـنـ وـجـهـةـ نـظـرهـ،ـ وـ"ـسـيـعـيـدـ التـواـزنـ الـدـولـيـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ"ـ،ـ بـعـدـ أـنـ أـثـبـتـ بوـتـيـنـ "ـشـجـاعـتـهـ"ـ مـقـابـلـ "ـتـرـدـ"ـ أـوـبـاماـ".ـ

وـبعـيـدـاـ عـنـ إـلـدانـةـ أـوـ التـرحـيبـ،ـ فـإـنـ مـدارـ الـبـحـثـ فـيـ هـذـاـ مـقـالـ هوـ عـنـ مـعـنـيـ التـدـخـلـ روـسـيـ فـيـ المـيـزـانـ الـاسـتـراتـيـجيـ،ـ وـإـنـ كـانـ يـمـثـلـ فـعـلاـ،ـ كـمـاـ يـرـىـ الـفـرـيقـ الـمـؤـيـدـ لـلـنـظـامـ السـورـيـ،ـ اـنـتـصـارـاـ لـبـوـتـيـنـ وـمـوـسـكـوـ،ـ وـهـزـيمـةـ لـوـاـشـنـطـنـ وـسـيـاسـةـ أـوـبـاماـ،ـ وـهـوـ مـاـ يـنـتـطـلـبـ اـبـتـادـ قـرـاءـةـ سـرـيـعـةـ فـيـ اـسـتـراتـيـجـيـةـ أـوـبـاماـ الـأـوـسـطـيـةـ.

استراتيجية أوباما:

مـثـلـ إـسـتـراتـيـجـيـةـ أـوـبـاماـ تـجـاهـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ إـحدـىـ العـقـدـ لـدـارـسـيـ السـيـاسـةـ الـخـارـجـيـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ فـيـ عـهـدـهـ،ـ وـتـنـوـعـتـ الـأـسـمـاءـ وـالـتـوـصـيـفـاتـ الـمـسـتـخـدـمـةـ فـيـ الدـوـائـرـ الـأـكـادـيـمـيـةـ وـالـبـحـثـيـةـ لـهـذـهـ اـسـتـراتـيـجـيـةـ أـوـ مـاـ يـسـمـيهـ بـعـضـ الـأـكـادـيـمـيـينـ "ـعـقـيـدـةـ"ـ السـيـاسـةـ الـخـارـجـيـةـ لـأـوـبـاماـ،ـ إـذـ وـصـفـهـ الـبـعـضـ "ـبـالـتـرـدـ"ـ،ـ وـآـخـرـونـ "ـبـالـسـيـاسـةـ الـمـرـنـةـ"ـ حـسـبـ التـطـورـاتـ،ـ وـاعـتـبـرـهـ الـبـعـضـ "ـلـاـ عـقـيـدـةـ"ـ،ـ

أي أن سياسة لا يحكمها مبدأ معين كما حكم مبدأ "الحرب الاستباقية" عقيدة بوش الابن في السياسة الخارجية، وأطلق عليها البعض وصف "ضد البوشية"، بمعنى أن المحرك الرئيسي لأوباما في سياسته الخارجية هو أن يقوم "بضد" ما قام به بوش.

ولكن تتبع سياسة أوباما في الشرق الأوسط، خصوصاً بعد عامين من دورته الرئاسية الأولى، يدفعنا للقول إن هناك عقيدة واضحة لأوباما في سياساته الخارجية، وإنه لم يكن "متربداً"، بل **حافظ على عدة مبادئ رئيسية ثابتة حكمت استراتيجية المنطقة**.

- الأول: إنهاء سياسة "الحرب الاستباقية" التي انتهجها بوش الابن وكلفت أميركا خسائر مالية وسياسية هائلة، ووعد أوباما في حملته الانتخابية الأولى بالتوقف عنها، والتحول بالإتفاق على دعم الاقتصاد ومشاريع البنية التحتية لفتح الملايين من فرص العمل الجديدة للأميركيين، بدلاً من الإنفاق على الحروب.

- الثاني: تقليل الانخراط والتدخل في الشرق الأوسط، وهو مبدأ ترافق مع ظهور تيار أكاديمي وسياسي أمريكي يدعو للعودة إلى سياسة واشنطن قبل الأربعينيات من القرن الماضي التي قامت على علاقات جيدة مع دول الإقليم دون التدخل بها، باعتبار أن هذا التدخل أساء لصورة أميركا وكلفها كثيراً من الخسائر المالية والبشرية والسياسية دون الحصول على أثمان مناسبة لهذه الخسائر.

- الثالث: انطلاقاً من المبادئ السابقين، فإن التوجه العام لسياسة أوباما لم يكن الابتعاد عن الشرق الأوسط بمعنى خلق "فراغ" فيها، كما قد يفهم من مبدأ "تقليل الانخراط في المنطقة"، فهو أمر لا يمكن لواشنطن أن تقبله في المرحلة الحالية أو في المستقبل القريب.

بل إن هذين المبادئ قاداً إلى المبدأ الثالث والأهم في استراتيجية أوباما الأوروبية، وهو الاعتماد على "وكالات إقليميين" أو محليين للتعامل مع تطورات الأوضاع في الشرق الأوسط، أو ترك "الحلفاء" و"الخصوم" يديرون صراعاتهم البنية بما يحقق مصالح الولايات المتحدة دون أن تتورط الأخيرة بحرب استباقية كانت أو غير استباقية، ودون أن تضطر إلى الانخراط في مشكلات الإقليم بما يمثله ذلك من تكاليف سياسية وأمنية واقتصادية على واشنطن.

لقد صبغت هذه المبادئ الثلاثة سياسة أوباما في كل الملفات الساخنة في المنطقة، حيث رفض استخدام "الحرب الاستباقية" للتعامل مع ملف إيران النووي، واعتمد على شركائه الأوروبيين في إسقاط نظام القذافي بعد إصدار قرار مجلس الأمن رقم 1973، كما تراجع اهتمامه بالصراع العربي الإسرائيلي، واستخدم حلفاءه و"وكالاته" الإقليميين لإدارة الصراع بسوريا، خصوصاً بعد عسكرة الثورة التي سببتها دموية النظام، وترك خصوم وأعداء الولايات المتحدة يدخلون في صراع دموي في البلاد، بما يؤدي إلى إضعاف جميع هؤلاء الخصوم والأعداء دون أن تصرف واشنطن دولاراً واحداً، أو ترسل جندياً واحداً إلى منطقة الصراع.

التدخل الروسي:

بالنظر إلى المبادئ الثلاثة المذكورة آنفاً في استراتيجية أوباما الأوروبية، يمكن القول، وخلافاً لما هو سائد، إن التغاضي الأميركي عن "التوغل" الروسي العسكري بهذا الشكل الفج في الصراع بسوريا ليس مجرد دلالة على تراجع الولايات المتحدة أمام طموحات بوتين في المنطقة، وليس دليلاً جديداً على "تردد" أوباما، بل على العكس من ذلك، هو دلالة جديدة على تمسك الرئيس الأميركي باستراتيجيته القائمة على تحقيق أهداف بلاده دون توريط جيشه بحروب جديدة، ودون انخراط مباشر في

صراعات الشرق الأوسط، وبالاعتماد على "الوكلاء" الإقليميين في إدارة الصراعات وضرب الأعداء والخصوم بعضهم البعض.

ومن المتوقع أن يحقق أوباما من الانغماض الروسي المتندفع في سوريا أربعة أهداف استراتيجية:

الأول: هو محاربة تنظيم الدولة وغيره من المنظمات التي صنفتها الولايات المتحدة جماعات إرهابية، ولكن هذه المرة بأموال وطائرات روسية، دون أن تكلف هذه المعركة واشنطن أية خسائر اقتصادية أو بشرية، والأهم من ذلك خسائر "أخلاقية"، حيث سيتكلف الجانب الروسي بهذه الحرب نيابة عن الولايات المتحدة، بوعي أو من دون وعي، وسيدفع أثمانها الباهظة "أخلاقياً"، حيث ستتحول موسكو إلى "عدو" لغالبية الشعوب العربية، خصوصاً أن الجيش الروسي معروف بعقيدته القتالية التي لا تقيم للأبعاد الأخلاقية أي حساب في الحروب.

أما الهدف الثاني: الذي سيتحققه أوباما من التدخل الروسي فهو وجود دولة "عاقلة" إلى حد ما، تتفاوض مع الغرب وحلفائه نيابة عن نظام الأسد الذي فقد شرعنته ووجوده كنظام سياسي يمكن التفاوض معه، بعد أن تسبب بما حل في بلاده من تقسيم، وفي شعبه من قتل وانقسام وتهجير.

لقد أصبح نظام الأسد بعد التدخل الروسي، شاء أم أبي، رهينة لموسكو ولخيارات الكرملين السياسية، وليس غريباً من الشواهد التاريخية للسياسة الروسية أن يقرر بوتين في لحظة ما أن يبيع "الأسد" مقابل الحفاظ على ما تبقى من نظامه والحصول على نفوذ روسي في سوريا، مع بعض الحوافز السياسية في المسألة الأوكرانية، والامتيازات الاقتصادية في ظل أزمة تراجع أسعار الطاقة عالمياً.

أما الهدف الثالث: فهو التخفيض من نفوذ إيران في سوريا، إذ يمثل التدخل الروسي العسكري تنصيباً صريحاً لروسيا فاعلاً أساسياً في الصراع، وحليفاً أول للنظام، إذ أصبح الدعم الروسي لدمشق يتعدى مثيله الإيراني، وبات يجمع بين قوة "الفيتون" وقدرة الطيران الحربي اللذين لا تملكهما طهران، مما سيؤدي إلى تضخم النفوذ الروسي على حساب إيران. وقد أشارت تقارير إعلامية دولية إلى أن إيران ليست مررتاحة في واقع الأمر للتطورات الأخيرة، وإن كانت أعلنت تأييدها للقفص الروسي في العلن.

ويبقى الهدف الرابع: الذي يمكن لواشنطن أن تتحققه على المدى البعيد من التدخل الروسي رهيناً لتطورات الأوضاع على الأرض، إذ يعتمد على مدى تورط روسيا بالحرب وإمكانية تجاوز القصف الجوي إلى عمليات برية، ومعنى بهذا الهدف استنزاف روسيا في حرب طويلة قد تؤدي إلى خسائر كبيرة على الصعيد العسكري والسياسي، في حالة شبّيه لتورط الاتحاد السوفيتي السابق في أفغانستان.

وبالطبع ليس هناك أهداف مضمونة التحقيق في السياسة وال الحرب، خصوصاً في ساحة ملتهبة كما هو الحال في سوريا، ولكن القراءة الأولية في الأحداث بالاستناد إلى استراتيجية أوباما الأوروبية، تقودنا إلى الاعتقاد بأن مآلات التدخل الروسي ستُنصب في صالح تلك الاستراتيجية، التي تحقق أهداف الولايات المتحدة من دون التورط في حروب لا تزيد واشنطن تحمل تكاليفها وتعاتها بعد تجربة احتلال العراق.

قد يستمر الجدل طويلاً حول الخاسر أو المنتصر من التدخل الروسي العسكري في سوريا حتى تضع الحرب أوزارها، ولكن أحداً ليس بحاجة لانتظار انتهاء الحرب ليدرك أن الخاسر الأكبر في المرحلة الحالية وفي المستقبل القريب غالباً هو الشعب السوري الذي حولت دموية النظام وفشل المنظومة العربية والدولية ثورته المجيدة إلى حرب استنزاف يدفع ثمنها

هذا الشعب يومياً.

الجزيرة

المصادر: